أضواء على كتاب «العادة»
لعضو المجمع العلمي العربي جبر ضومط

د محمود السيد(*)

من الآثار القيمة التي أنجزها الدكتور جبر ضومط العضو الراحل في المجمع العلمي العربي بدمشق «مجمع اللغة العربية بدمشق حاليا» كتاب «العادة» وقد طُبع في مطبعة المقتطف في القاهرة سنة ١٨٨٨م، وثمة فائدة كبيرة في تعرف آثار علمائنا الراحلين الذين خدموا لغتهم العربية بكل تفان وإخلاص وإحساس عالٍ بالمسؤولية تجاه أمتهم.

لقد تناول في كتابه العلاقة بين الجسد والعقل، وبينه وبين النفس، وركز على أهمية التمرين في اكتساب العادة، وقارن بين اكتساب الإنسان للعادة واكتساب الحيوان لها، وأشار إلى دور الإرادة في تكوين العادات لدى الإنسان، وحذّر من استبداد العادة بالإنسان، مبينا دور الأهل والمعلمين في ضبط سلوك الصغار وتربيتهم، وتهذيب طباعهم وتنمية عقولهم من غير تضييق لحرياتهم، وموضحا أن الحرية الشخصية لا تعني الاستجابة للشهوات، فتلك هي حرية الحيوان الذي لا يستطيع أن يتحرر من عبودية شهواته، ولكن الحرية الحقيقية هي أن يسيطر الإنسان على نفسه، وأن يتحكم في شهواته، وأن يخضع ذلك كله للقيم والمبادئ

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

السامية، بما يؤدي إلى تحقيق أقصى نمو للفرد والمجتمع. وأن أولئك الذين يتركون أطفالهم وتلاميذهم يفعلون ما يشاؤون دون توجيه وإرشاد باسم الحرية إنما يسيئون إليهم إساءة كبرى، ويجعلونهم ضعافًا لا يسيطرون على أنفسهم، أو يتحكمون في دوافعهم، بحيث تنعدم فيهم كل معاني التربية. فالتربية السليمة ضبط وتوجيه وتحكم في الذات وإخضاع مطالبها للقيم والمبادئ السامية التي لا يكون الإنسان إلا بها.

ويرى المؤلف أن أول ما ينبغي اعتياده هو الترتيب والتوقيت، وأن للقدوة دورا كبيرا في تعويد الآخرين اكتسابهما، ذلك لأن القدوة أفعل من التعليم، ولسان العمل أمضى وأبلغ من لسان البلاغة والنطق. ومن الأمور التي لابد من تعويد الصغار إياها حب الآخرين، ويرى أن المؤثرات الخارجية كعادات المجتمع تؤثر في الأبناء والأحفاد، وأن لخصائص أطوار نمو الفرد تأثيرا داخليا في تكوينه، ولابد من التركيز على دور الإرادة في حياتنا.

ولعل من الفائدة أن ننتقل من الإجمال إلى التفصيل في بعض الجوانب التي تناولها المؤلف في كتابه.

يرى أن ثمة علاقة وارتباطًا شديدين بين الجسد والعقل وبينه وبين النفس. ومن أول ما نراه على تلك العلاقة وشدة الارتباط ما تؤثره العادة في كل منهما، فإن للعادة من الأثر في الجسم الإنساني ما لا ينكره منكر، ومثل ذلك في القوى العاقلة، ولكل من الأثرين علاقة بالقوة المغذية، وأحوال التغذية تتوقف على سنن معينة ومنهاج مطرد.

ويبين أن من خصائص الأجسام الحية أن تنشو وتنمو إلى شكل معين موروث، وبنية مخصوصة لا تتعداها في شبه الأصل المتولدة عنه، إلا أن أعراضا خارجية قد تغير في هندامها بعض التغيير، وذلك إذا طرأ عليها شيء من اختلاف الغذاء والهواء، وأكثر ما يفعل فيها ذلك في أزمنة معينة من نشوئها ونمائها، فبعض النباتات تختلف ظواهرها الخارجية اختلافًا بينا إذا اختلفت التربة التي تنمو فيها، فإنها تتباين تباينا بعيدا حتى

تصبح كأنها أنواع متباعدة، ويظنها الناظر إليها أجناسا مختلفة، وما هي إلا نوع واحد في الحقيقة، اختلفت مظاهره لاختلاف المكان والغذاء أي التربة التي تنمو فيها.

وفي الأجناس العالية الرتبة من النبات يظهر عليها أثر العوامل الخارجية في أثناء نمائها وارتقائها، وتؤثر العوامل الخارجية في نمو الحيوانات، إلا أن ما يزيد من الدقائق نموا على الأصل بفعل العوامل الخارجية ما هو إلا شيء يسير بالنسبة إلى ما يندثر فيتجدد من الدقائق الأصلية بوساطة الغذاء.

والدقائق المتجددة في مراحل النمو تتمثل على شاكلة ما كانت عليه الدقائق المندثرة فتكون أكثر استعدادا للتكيف بالحالة التي كانت عليها حين اندثارها من الحركة والعمل. والدقائق المتجددة في الدماغ تكون على شكل المندثرة وأميل في الاستعداد للحالة التي كانت عليها المندثرة من الحركة العقلية حال اندثارها، فتحل هذه محل تلك وتستبدل بها شكلاً ووضعا وحالة، وما تؤثره الأحوال الداخلية والخارجية معا ينتقل بالوراثة إلى البنين كثير من خصوصيات الآباء ومميزاتهم فضلاً عن خصوصيات النوع المشتركة بين جميع أفراده.

ويؤكد المجمعي جبر ضومط في كتابه «العادة» أن أكثر ما يكون فيه هندام المجموع العصبي قابلاً للتغيرات وحفظها إنما هو في أوائل العمر إلى البلوغ، فإن أعمال المجموع العصبي وحركاته ولاسيما الدماغ، تكون إذ ذاك على أشدها وأكثرها، ومن ثم تكون جارية الاندثار والتجدد أكثر حدوثًا وتكرارا، فإذا ألف جزء من هذا المجموع حركة أو عملاً مخصوصا في هذا السن قوي فيه الاستعداد لذلك العمل أو الحركة حتى تصبح أعماله وحركاته أخيرا تجري بداهة عند الاقتضاء.

وحركات الجسم الظاهرة لا تكون في بادئ الأمر بدهية، وإنما تكتسب بالعادة والتمرين حكم البديهة، وهذه منها ما هي عامة ومنها ما هي خاصة، فالعامة وهي كالمشي منتصبا تتحصل لسائر أفراد الجنس ما لم يمنع مانع في بعض الأفراد من عجز

الجسم الطبيعي، وهذه في الحيوانات دون الإنسان غريزية في الجبلة. أما في الإنسان فبعد شيء من الكسب تصبح في حكم الغريزة. وأما الخاصة فيقتضى لها تمرين خاص وهو أفعل ما يكون في مراحل النمو والتكامل، فإذا حصلت للمرء بحكم العادة صارت في حكم البديهة أيضا، وذلك كبعض الصناعات والأعمال التي تقتضي تمرينا في قوى الحس والحركة كالغناء على بعض الآلات الموسيقية.

ويقارن المؤلف بين هذه الحركات لدى كل من الإنسان والحيوان فيرى أن أغلبها لدى الحيوان غريزية، إذ إن الحيوان، يقدر على تمرسها لساعة ولادته، وسره أن لها مجهزا عصبيا منوطًا فيه إدارتها وإحكامها بداهة دون توسط الإرادة. وأما في الإنسان فهي مشابهة لما هي في الحيوان أي إن لها جهازا عصبيا، إلا أن هذا المجهز لا يكون لأول خلقته تاما بل يتكامل بعد ذلك شيئًا فشيئًا، ولذلك ما كان من الحركات موقوفًا على هذا المجهز يقتضي له في بدء الأمر توسط الإرادة في كل حركة من بدايتها إلى نهايتها، فإذا تكامل انقلبت الحركات المنوطة به إلى البديهة على ما هي عليه في الحيوان، فالطفل إذا ترك ولم يمرن على المشي منتصبا تأخر ذلك فيه إلى زمن أطول، ثم ما يزال بعد ذلك مدة تضطرب فيها حركاته لأقل مانع أو سبب، حتى يبلغ فيه هذا المجهز مبلغه اللازم من التكامل. فإذا تم تكامله صار جزءًا بالفعل من المجهز، وتصبح أفعاله منعكسة تجري بالبداهة بعد توسط الإرادة، ويلاحظ ذلك لدى الموسيقي الماهر من حركات اليد والرجل والعين والفم على أتم تناسب وأضبط توقيع، وكل ذلك على حين تكون أفكاره منشغلة بأمر آخر، كما يلاحظ لدى المحاسب الماهر فإن يديه تخطان الأرقام على غير انتباه منه، كالقارئ المنشغل بأمر آخر، إذ إن مزاولة القراءة جعلت فيه الحال ملكة أي عادة تصدر عنها أفعالها من غير روية.

وأما القوى الظاهرة فتأثير العادة فيها ما هو من البيان والوضوح، إذ بعد

المزاولة يدرك بها بداهة ما كان لا يدرك في أول الأمر، أو إذا أدرك فبعد عناء من توسط الإرادة وتوجيه الانتباه أيما توجيه.

ويوضح المؤلف دور التمرين في تكوين العادة فيشير إلى أن الذاكرة إذا روضناها في مراحل تكاملها على تمرين مخصوص نشأت على خاصة تابعة لنوع التمرين وقويت على أعمالها أيضا، وإذا تكرر حفظ شيء فيها المرة بعد المرة في مدة النمو رسخ في الذهن وذكر فيما يلي لأقل داعٍ لذكره. ومثل ذلك مشاهد أيضا في قوة الذهن من حيث معرفة نسب الأعداد بعضها إلى بعض ومجموعاتها وفضلاتها ومحاصيلها، وهذه القوة يتأخر ظهورها حتى إذا لم يدع إلى تمرينها بقيت في سباتها مدة طويلة، ثم إذا ظهرت ظهرت على حالة من الضعف يقتضي لها في إتمام عمل من أعمالها إلى مداخلة الإرادة لتوجيهها إلى تتميم عملها في كل حركة منه تقريبا. وهي إذا مرن المرء عليها في مراحل نموه ظهرت سريعا وتمت وتكيفت بما يلائم نوع التمرين.

فإذا سئل بعد التمرن ما مجموع كذا وكذا وكذا قال على الفور كذا، وإذا قيل ما حاصل كذا في كذا قال على البديهة كذا، وكثير من الباعة وأشباههم ممن لا يكتبون وتدعوهم حرفة معاشهم إلى تمرين هذه القوة تبلغ فيهم ضمن دائرة تمرنهم إلى حد لا يفوقهم فيه أبرع الحساب.

ويعلل المؤلف هذه الظاهرة بأن لهذه القوة مجهزا دماغيا عصبيا تناط به أفعال هذه القوة وحركاتها، فإذا هذبته العادة تحت مناظرة الإرادة أزمان نمائه وتكامله تكيف لما يوافق هذا التهذيب ونوع التمرين، واستبدلت بدقائقه في كل تجدد ومع كل تكامل دقائق أخرى مطبوعة على العمل والحركة وفقًا لما تعوده، فتصير حركاته آخر الأمر بديهة، فإذا حثها حاث الإرادة أو حاث آخر جرت مع السهولة على منوال ما اعتادته ورسخ فيها سابقًا، وبهذا يعلّل أيضا عمل من اعتادوا نوع تمرين أو طريقة معلومة، فإذا خرجوا عنها وقفوا كأنهم لا يعلمون شيئًا، كما هو في

أمر الباعة الذين اعتادوا طريقة معينة تمرنوا وفقها، فإذا خرجوا عنها إلى غيرها إما أن يقف مجهزهم عن الحركة أو يحتاج إلى الإرادة تدربه في كل خطوة.

وهذا المجهز بعد أن يعتاد كيفية العمل تحت مناظرة الإرادة مرارا، يصبح بعد ذلك مستقلاً في العمل لا يحتاج إلى مداخلتها على نحو ما كان يحتاج إلى ذلك من قبلُ، وإذا استمر على المزاولة وتجددت دقائقه بعد كل اندثار استحكم أثر العادة في الدقائق وأصبح هذا الأثر كأنه من طباع الدقيقة فتحفظه كما تحفظ غيره من الدقائق. فمن اعتاد القياس في علم معين وعلى طريقة معينة غدا استعماله سهلاً والخروج عنه صعبا لأنه لم يعتد غيره، وما اعتيد قبل البلوغ يصعب نسيانه بعد ذلك كما أنه يصعب بعدها اكتساب ما هو مغاير للحالة التي اعتيدت قبل البلوغ لأنه بعد البلوغ ترسخ المجهزات البدنية والعقلية على الحالة التي اعتادتها قبله فيصير ذلك المجهز في حالته هذه جزءًا من مجموع الهيكل كاملاً، ويغدو الميل إلى البقاء على المألوف شديدا ومقاومة ما يخالفه كبيرا، وتصبح أعمال المجهز العصبي جارية على البداهة فيكون نسيانها والخروج عنها إلى ما يغايرها، كل ذلك يصعب عليه، ويبعث على المقاومة والعناد أو البقاء على ما كان.

وإن بعض ما يعتاد في أوقات معينة يعاود المعتاد في الوقت نفسه بداهة، وليس ثم ما يعرفه بالوقت، إذ يحكى عن كلب كان يطعم في زمان معين ومكان معين فكان يأتي المكان المعين في الزمان المعين تماما لا يخطئه كأن معه أدق الساعات وأضبطها. ويحكى عن سنونو كان يأتي إلى كوخ كل يوم في ساعة معينة بعد الظهر، ويضرب بمنقاره باب الكوخ يطلب رزقه المعتاد، كما يحكى عن كلب كان يكره الغسل وكان أصحابه يغسلونه في كل خمسة عشر يوما مرة، فصار إذا جاء اليوم المعين يهرب من البيت فلا يعود إليه حتى يمر وقت الغسل. وقد يكون من الأشخاص من تدعوهم أشغالهم للقيام في ساعة معينة من الليل فيستعملون المنبه

في بدء الأمر، فإذا اعتادوا القيام في تلك الساعة على أيام استغنوا أخيرا عن المنبه كل الاستغناء فيستفيقون من نومهم العميق في الساعة والدقيقة المعتادتين، إلا أنه لا ينكر أن أفراد الحيوان والإنسان على تفاوت، فمنهم من يسهل عليه كل السهولة التكيف لما يلائم المعتاد، ومنهم من يصعب عليه ذلك، فلا يحصل معه هذا التكيف إلا بعد أشد التمرين مدة طويلة جدا.

ويبين المؤلف أن القوى العاقلة لا تظهر جميعها دفعة واحدة، فيتقدم بعضها كالذاكرة، ويتأخر بعضها الآخر كقوة النظر والاستدلال وما هو شبيه بها أو مترتب عليها من إصابة الرأي وسداد التدبير.

والذاكرة أيضا منها ما هو متعلق بأيام الصبا فالشباب فالكهولة وهكذا. ومعلوم أن المتعلق فيها بأيام الصبوة والشباب ما يزال آخرا في النفس، في الوقت الذي نرى فيه أن ما هو متعلق بالشيخوخة يكون أول ما يمحي من النفس. وأما بقية القوى العقلية التي يتأخر ظهورها فلا تبلغ مبلغها من القوة والشدة دفعة واحدة، بل تنمو شيئًا فشيئًا إلى أن تقف عند آخر حدها، ولا تزال كذلك إلى أن يبدأ الانحطاط فتمحي هذه القوات على عكس ما نشأت وتكاملت، بمعنى أن ما تكامل آخرا يمحي أولاً وبالعكس.

ويفرد المؤلف حيزا في كتابه لأهمية العادة مشيرا إلى قول بعض الفلاسفة، إن أخلاق الإنسان إنما هي مجموع عادات، وأن المشهور على لسان العامة والخاصة أن العادة خامس طبيعة، ولا يخفى أنه إذا كانت العادات مستحسنة كان لها من النفع ما لا يكاد يقدر. ولا يخفى على الطلبة ما تسهله عليهم العادة من إتمام ما يحاولونه من الأعمال العقلية، ويعلمون أيضا الفرق بين ما اعتادوه وبين ما لم يعتادوه فإن الأول هين عليهم وسهل، بخلاف الثاني فإنه شاق وعسر.

ويقول المؤلف في هذا الصدد: «وأعلم عن كثيرين اعتادوا مكاتبة أصحابهم في

يوم معين من الأسبوع، فإذا جاء هذا اليوم أسرعوا إلى الكتابة عفوا لا يرون فيها شيئًا من الصعوبة، وآخرين وهم أقدر على الكتابة من الأولين لا يكتبون الكتاب ولو عاتبهم أصحابهم على الكتابة أشد العتاب وطالبوهم بها المرار الكثيرة».

ويحذر المؤلف من استبداد العادة قائلاً: على أن في العادة محلا للاحتراس من أن تتغلب على النفس وتقوى على تصرفها وتدبيرها فيصبح المعتاد عبد العادة لا يخالفها ولا يعدل إلى غيرها مما يدعو إليه الحال، فإن هنالك الكثيرين تسترقهم العادة وتتحكم فيهم فتصبح متسلطةً عليهم لا خادمةً لهم، وإذا كانت العادة عادة سوء فتأصلت مع المعتاد ورسخت صورتها في نفسه، أو كان فيه من الميل السوء ما يتغافل عن اقتلاعه، صار أمر ذلك الرجل إلى أنه لا يعود يقوى على مخالفة هذا الميل وتلك العادة إلا بعد العناء والجهد في توطين الإرادة وقوة القصد، وقد لا يقوى على ذلك إذا كان يرافق الميل شيء من الانفعال النفساني، فإنه في كل مرة يغلب في أعماله داعي الشهوة تزداد الشهوة فيه تشهيا والميل استحكاما، وتزداد الإرادة ضعفًا إلى أن تخضع آخر الأمر أتم الخضوع لسلطان الشهوة وتعجز عن المقاومة.

ويؤكد أن المجهز للقوى العاقلة والأدبية إذا اعتاد شيئًا أزمان نموه وتكامله رسخ عليه أخيرا وأصبحت أعماله من ثَم بدهية أو في حكم البديهة، ولما كان هذا المجهز موقوفًا على الإرادة في أول أمره كان تعويده وتمرينه في البداية على قوة الإرادة ومن ثم تكون أفعاله على غاية الحسن في النهاية وإلا فلا.

وفي ضوء ذلك كان دور الأهل والمعلمين كبيرا ومهما جدا في تقوية إرادة الصغار وتدريبهم على ذلك. ومن هنا يحذر المؤلف من إهمال هذا الدور، إنْ من الأهل أو من المعلمين، مبينا أن من أهمل تهذيب بنِيه صغارا طالبته العناية الأزلية بتبعية ما يصيرون إليه كبارا، وعاقبته على ذلك أشد العقاب لأنه لم يقم بواجب ما اؤتمن عليه، أو جنى على الإنسانية أعظم جناية، وأضر بالعمرانية والدولة أشد ضرر.

وما أعظمها من فائدة تلك التي يدعو إليها الوالدين في أن يكونوا قدوة أمام أبنائهم إذ يقول: «فليتحرس الوالدون، فإن كل كلمة منهم تؤثر في مجهزات بنيهم أثرا لا يمحي على الأيام، وكل حركة من حركاتهم يطبع مثلها في أنفس بنيهم، وهيهات أن تزول بعد ذلك، فمن شتم على مسمع من بنيه فقد كيف نفوسهم أو مجهزاتهم على الشتم، ومن افتخر بقبائحه على مسامعهم فقد ركّب في فطرتهم جرثومة القحة والقباحة، تنمو مع نموهم، وترسخ في بنيتهم متى بلغوا».

ومن المبادئ التربوية الهامة التي تضمنها كتاب «العادة» لجبر ضومط ما نبه عليه الوالدين في ضرورة تقوية الإرادة في تربية الصغار عندما يقول: «ومن حملته رقة قلبه على ما يدعي أنه يسامح أبناءه الصغار بما يقترفون، ويغض الطرف عما يفعلون أو يقولون، ويجيب ملتمسهم إلى كل ما يطلبون مما توسوس إليهم به شهواتهم وأهواؤهم، فقد جنى عليهم أكبر جناية وأساء إليهم ما لا كفارة عنه في يوم الدين، فهو يضعف فيهم الإرادة، ويمكّن من سلطة الأهواء حتى إذا كبروا واستحكمت أهواؤهم وضعفت إرادتهم أصبحوا عبيد الشهوة وأرقاء الهوى، فكم من ولد قتله أبوه، وابنة سعت في خزيها أمها وهما لا يعلمان!».

ويعجب المؤلف أشد العجب ممن يعلّم ابنه الخيانة والختل صغيرا، ويعجب الأب من خيانة ابنه له وختله إياه كبيرا، أو يملأ مسامعه بحديث الجن والغيلان ويعجب إذا رآه من بعد هذا جبانا جاهلاً».

ووقف المؤلف في كتابه «العادة» على الأدوار الكبيرة التي يؤديها المعلمون في تربية الجيل، إذ إن مهمتهم من أكبر المهام وواجباتهم من أسمى الواجبات، لأنهم مهذبو العقول والقلوب وحماة الإنسانية ومشيدو دعائم العمران البشري على أحسن تشييد، لأنهم هم الذين يثقفون القوى العاقلة والأدبية في نشوئها ونموها وتكاملها، فترسخ مجهزات تلامذتهم وفْق ما دربوها وعودوها إياه.

ويعدد المؤلف السمات التي ينبغي للمعلمين أن يتحلوا بها في مهنتهم، ومن هذه السمات أن يكونوا خبيرين بأحوال الفطر وشرائع العقل البشري، وأن يكون لهم إلمام بأحسن الطرق لتهذيبه وترويضه ولاسيما العواطف والانفعالات، وتدريب عقل التلميذ وإرادته لتكون الأولى في أرقى أحوالها، وتصل إلى أتم ما يمكن لاستعدادها الوصول إليه من المدركات والثانية على أحسن أحوالها وأشدها، تحسن التصرف والتدبير في أحوال القوى، ولها من العواطف الأدبية والصفات أعظم باعث يبعث بها على العمل وبلوغ مبغاها من ترقية الإنسانية والعمران.

ويشير المؤلف إلى الآثار السلبية لغياب هذه الصفات، فيرى أن المعلم الجاهل الخامل يضر بالتلميذ ضررا أقله أنه يعديه من خموله، ويعود مجهزاته إما الخمولَ وعدم الحركة، وإما الخطأ في حركاتها توصلاً إلى المطالب، فهي قد لا تصل إليها أو تصل إليها بعد العناء والمشقة حال كون التلميذ قوي البديهة سامي المدارك، وإذا لم يتهيأ التلميذ أن يتخرج على غير هؤلاء المعلمين نشأ على خمولهم وجهلهم، وإذا تهيأ له في سنٍ موافق التخلص من تحت مناظرتهم، فأصعب ما عليه أن تنسى مجهزاته ما ألفته عند أمثال هؤلاء الجهلاء.

ويقول في هذا الصدد: «أعرف الكثيرين من التلامذة درسوا على أمثال هؤلاء المعلمين فأعداهم هؤلاء من خمولهم، حتى إن قواهم العاقلة أصبحت كأنما هي مغلولة بسلاسل، وكنت أرى أن أمثال هؤلاء لا يستطيعون حراكًا إلا إلى جهة معلومة حسبما ألفوه من أساتذتهم، وأنهم لا يستطيعون أن يخطوا خطوة في جهة العلم الصحيح إلا بعد معاناة التعب الشديد في أن تنسى عقولهم الطريقة التي عودوها، فإنك كلما وجهتهم إلى ما تريده منهم رأيتهم بعد قليل رجعوا وكأنما قسرا إلى مجاري تصوراتهم المعتادة سابقًا.

ويوضح الخطأ الذي يرتكبه الوالدون، عندما يكلون أمر تعليم بنيهم إلى قوم خاملين وعلى جانب من الجهل وضعف المدارك، بدعوى أن بنيهم ما يزالون صغارا

كأنما هم لا يعلمون أن بنيهم في هذا السن تتأثر قواهم العاقلة من أقل المؤثرات، وتنشأ مجهزاتهم وتتكامل على الكيف الذي يكيفها به أولئك الناس، حتى إذا طالت ألفتهم لهؤلاء المعلمين رسخ في عقولهم أوكاد آثار خمولهم وجهلهم، واعتادت مجهزاتهم ما عودوهم إياه ولا تخرج عن ذلك إلا بعد العناء الشديد.

ومن الأمور الهامة التي ينبه عليها المؤلف أهمية الدور الذي ينبغي لمعلم المرحلة الابتدائية أن يؤديه، ولهذا يفند الزعم الذي يرى أن أي الناس يصلح أن يكون معلما في المرحلة الابتدائية، على حين أن معلمي هذه المدارس ينبغي أن يكونوا من أحكم الناس وأفضلهم، عارفين بطبائع من يدرسون وميولهم وقوى عقولهم، ليحكموا تهذيبها ويقوموا اعوجاجها ويصلحوا الفاسد منها، وأكثر من ذلك أن يهذبوا فيهم الإرادة ويثقفوها لتكون في أيامهم الأخيرة أهلاً لتدبير قواهم العاقلة، وصرفها إلى أحسن سبيل يعود عليهم وعلى الإنسانية بالنفع الصحيح والخير العام.

ويستدرك رؤيته تلك قائلاً: «ولا يظُنن ظان أني أريد أن يكون هؤلاء المعلمون في مصاف أكبر فلاسفة الدنيا من جهة اتساع معارفهم وسمو مداركهم وخصوصية بدائههم، فإن شيئًا من كل ذلك يستغني عنه معلمو المدارس الابتدائية، إنما أقل ما هنالك أن يكون لهم إلمام وبراعة في المبادئ التي يتوجه إليها عقل التلميذ، وأن يكونوا من قوة الإرادة وحسن التدبير والتصرف ما يقتدرون معه على تربية عواطف من يهذبون، وأهم من كل هذا أن يكونوا عارفين بأخلاق الطلبة وطباعهم ومستويات عقولهم».

ثم يؤكد المؤلف أن العادة إذا استحكمت يصعب نسيانها بعد ذلك، وإذا استحكمت ورسخت فقد تنتقل إلى الأبناء ومن هؤلاء إذا استحكمت فيهم أيضا إلى أبنائهم وهكذا، إلا أنها في كل جيل قد تكون أرسخ مما قبله إلى أن تصبح تلك العادات آخر الأمر بمنـزلة الغريزة.

وتحت عنوان «ما ينبغي اعتياده» يرى المؤلف أن أول ما ينبغي اعتياده هو

الترتيب والتوقيت فإذا بدئ بهما في أوائل العمر بل في المهد، كان لهما من حسن الأثر في أخلاق الطفل الأدبية فيما يأتي من حياته الشيء الكثير، فإن إرضاع الطفل كلما بكى وإبقاءه في الحضن خوفًا من صراخه وعويله إذا وضع في السرير لمما يربي فيه الانقياد لداعي الشهوة والميل إلى الملذات والانغماس فيها إطاعة لباعث الهوى في أيام شبابه وكهولته.

وتجدر الإشارة إلى أن الطفلَ كما يرى المؤلف، سريع التكيف جدا لما يعرض عليه من ترتيب عيشه وتوقيت غذائه ونومه، والأمهات تعرف ذلك حق المعرفة فإن من عودت ابنها أن ترضعه في أوقات معينة لا يبكي طلبا للرضاع إلا إذا جاء ذلك الوقت الموقوت، وكذا من عودته النوم في أوقات معينة من اليوم، أو وضعا مخصوصا منه، فإنه ينام إذا جاء الحين الموقوت، وعلى الوضع المخصوص فمن اعتادت أن تهوم لابنها مثلاً قبل منامه لا ينام ما لم يهوم له وإلا بكى شديدا وهكذا.

وثمة وقفة على أهمية الألعاب الرياضية في تعويد الصغار الطاعةَ وإتمام الواجبات، والتمرينات العسكرية في تعويد الجند الطاعةَ وامتثالَ الأوامر، إلا أن المؤلف بعد هذه الوقفة يحذر من أمر يجب مجانبته وهو أن الأولاد إذا استمروا مقيدين على أوامر والديهم أو معلميهم لا يتجاوزونها إلى غيرها أصلاً ولا يبدون من تلقاء أنفسهم فعلاً صار أمرهم إلى العبودية، فلا يحسنون بعدها تدبير أنفسهم، والأولى أن يترك لهم مجال للاستقلال بتدبير شؤونهم على القدر الذي يستطيعونه ولا يحصل لهم معه مضرة، وكلما تقدموا في السنُ وسع لهم في دائرة استقلالهم وتدريب أنفسهم بأنفسهم حتى يكون تمام استقلالهم مع تمام بلوغهم.

ويركز المؤلف على دور القدوة في ملاحظة الولد الأقربين إليه يقومون بواجباتهم ولا يهملون شيئًا من المنبغي عليهم، لأن القدوة أفعل من التعليم ولسان العمل أمضى وأبلغ من لسان الكلام والنطق. وإذا أحسن الوالدون والمعلمون التدبير

والقدوة، ينشأ عن التمرن في الواجب خاطر الحق والعدالة فإن الولد في تمرنه على الواجب يرى عليه لوالديه حقوقًا ويرى هو له عليهم بعضها أيضا، فإذا كان له إخوة وأحسن الوالدون التعليم كلاما وتصرفًا، استحكم في نفس الولد خاطر الحق والعدالة أيضا، وإذا كان يرى عليه حقوقًا لإخوته يطلب منه الواجب تأديتها لهم، فالحقوق تؤدى لأصحابها وهذه هي العدالة. والمثال والقدوة من الإخوة أفعلُ في تمكين خاطر الحق والعدالة في النفوس من الآباء، وعليه فالانتباه إلى تهذيب البكر في العائلة له من الأهمية أعظمها لأنه يصبح بمنـزلة المهذب لإخوته فإن قدوته ومثاله أفعل فيهم في تعليم الطاعة والواجب والحق والعدالة من أبلغ عظات الواعظين وتعليم المعلمين والوالدين.

أما المعلمون فإن عليهم بذل الجهد في تهذيب المتقدمين بين التلامذة على التوقيت والترتيب ومراعاة الواجب والحق، فإذا تسنى لهم ذلك فعل هذا فعل السحر في عقول بقية التلاميذ وأصبح من شعائرهم تقديم الواجب على اللذة، فلا يعود يخطر لهم خاطر اللعب إلا إذا قاموا بواجب دروسهم وأتموا ما ينبغي لهم إتمامه، ولا يحتاجون بعدها إلى مخوف من القصاص ولا إلى مرغب في الجوائز.

وإذا أنس التلميذ من أستاذه الحب مال إليه بالحب، وإذا أحس منه بالفضل والاجتهاد وحسن المناقب تولد له في نفسه الهيبة والإجلال.

ويشير المؤلف إلى أن من الأمور التي لابد من تعويد الولد إياها حب الآخرين، وأعظم ما يمكّن عاطفة الحب الوالدي، ومن ثَم حب الغير، هو اعتناء الوالدين بتهذيب أبنائهم وإقبالهم على تحسين حياتهم العقلية والأدبية وإرشادهم إلى كل ما يؤدي إلى صلاح أمرهم وتقوية مداركهم، ولا عجب إذا عق الولد والديه إذا هما أغفلا تهذيبه العقلي والأدبي وأساءا تربيته بعد إذ يبلغ طور الصبا.

ويتوجه المؤلف إلى نداء الآباء قائلاً: «فيا أيها الآباء الذين يحبون بنيهم ويرغبون في تحكيم عرى الارتباط والمحبة بحيث لا تزول من قلوبهم، عليكم بتغذية

العقول بلبن العلم بعد إذ لا تحتاج الأجساد إلى لبن الأمهات، وتزيين النفوس بحلى الآداب كما تزينون الأجساد بحلى الأثواب، بل إذا غفلتم عن هذه فلا تغفلوا عن تلك، وإذا أعجزكم الزمان فلم تملك أيديكم أن توسعوا عليهم في الأموال فاحرصوا أن توسعوا عليهم في العلم، فإن ذلك خير ضمانة لكم على إقبالهم على إجلالكم وإعزازكم وتعلق محبتهم وعواطفهم بكم إلى أن تبلى الأجساد وتتصل النفوس بعالم الملأ والخلود».

وثمة مؤثرات في العقل لا تخضع للتعليم أو التهذيب، أفرد لها المؤلف حيزا في كتابه تحت عنوان «مؤثرات فينا غير ما ذكر»، وهي من الأحوال الخارجية، ومنها العرف العام أو عوائد الاجتماع العمراني، إذ إن كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني يولد في جو هذه العوائد فتؤثر فيه وفقًا لفعلها بما يكيف مجهزه العصبي لما يلائمها فيستقبح ما يستقبحه القوم ويستحسن ما يستحسنونه، ينام إذا ناموا ويقوم متى قاموا، ويشتغل إذا اشتغلوا، ويرتاح متى ارتاحوا، بل يعتقد بما يعتقدون ويكفر بما يكفرون، لا يجسر أن يشنع عليها وإن كانت شنيعة على ما يرى، وهو في كل ذلك مضطر لا اختيار له حسب الظاهر.

وفي جميع أحواله إذا خرج عن السنن المألوفة، استوجب من غضب أفراد المجتمع الإنساني ومزيد حنقهم عليه وغضبهم على من خالف عوائدهم المألوفة، يظهر تارة بالقتل وأخرى بالضرب والتعذيب، وآونة بالنفي أو السجن وأخرى بالاحتقار والسخرية ومزيد النفور. وهذه العوائد يتلقاها الابن عن أبيه كما تلقاها هذا عن أبيه أيضا، ومع الأيام يألفها ويجري على ما تقتضيه بداهة في أعماله وتصرفاته وأفكاره أيضا.

ويوضح المؤلف أن عادات المجتمع تؤثر في الأبناء والأحفاد، وأن لهذه الخصوصيات استقلالاً في تأثيرها، ودليله على ذلك ما نشاهده فيمن يتربون صغارا على تهذيب يخالف تهذيب أسلافهم، وعلى عوائد عامة تخالف كل المخالفة عوائد

شعبهم وآبائهم، فإن هؤلاء إذا نقلوا من مواطنهم وهم صغار ومجهزاتهم ما تزال غضة تتأثر لأقل الفواعل الخارجية، وتتكيف لما يلائمها، فيظهر منهم أول الأمر أن تلك الفواعل التي نقلوا إليها هي الفاعلة فيهم دون ما سواها، فيشبهون لأول الأمر أبناء البلاد التي نقلوا إليها، ويجارونهم في أطوارهم وأفعالهم وعوائدهم، وما يزالون كذلك حتى إذا أدركوا سن المراهقة أو بداية سن البلوغ وقفوا عن المجاراة وأخذت خصوصياتهم تظهر آثارها فيهم مع فعل الأحوال الخارجية التي هم فيها، فإنها بعد هذا السن يظهر كأنها لا تفعل فيهم كما تفعل في الآخرين من أهل البلاد.

ومن الأمثلة التي يستشهد بها المؤلف للتدليل على رأيه ما يلاحظ على الأطفال الأستراليين الذين يفصلون عن والديهم ويدرسون في بريطانيا، إذ إنهم يبزون أقرانهم الإنجليز في السنوات الأولى، حتى إذا كبروا توقفوا عن التكامل في الجهة التي يتكامل فيها أقرانهم، فتأخذ خصوصيات شعبهم الأسترالي تظهر فيهم، ويشتد بهم الميل إلى معيشة آبائهم، ولكل امرئ من دهره ما تعود أسلافه كما يرى المؤلف، كما يقدم مثالاً آخر للتدليل على رأيه، ما يلاحظ على البدو الذين يتركون موطنهم ويعيشون في الحضر، فإذا بلغ أطفالهم سن البلوغ تبدو عليهم خصوصيات البدو ولا يطيقون بعدها الحضر.

وإذا كان المؤلف يؤكد الدور الفعال للمؤثرات الخارجية، فإنه يؤكد في الوقت نفسه دور المؤثرات الداخلية، وهي خصوصيات أطوار الحياة، فإن لكل طور ما هو خاص به من الميول والأفكار بمعزل عن الفواعل الخارجية، كموجبات اللذة والألم فإنها تختلف في كل طور عما سواه من الأطوار، حتى قد يكون موجبها في الصبا مثلاً مختلفًا كل الاختلاف عنه بعد البلوغ أو في الكهولة، فما يلذ الصبوة قد لا يلذ الشباب، وما يسوؤها قد لا يسوؤه، على حين بقاء المؤثرات الخارجية على حالها وما تميل إليه الصبوة قد تنفر منه الكهولة كل النفور.

ويعلل المؤلف هذه الظاهرة بقوله: «وقد يعلل ذلك بما يطرأ على الجهز العصبي

في مرحلة الشباب من سرعة التجدد والاندثار مع النمو والتكامل بخلاف أزمان الشيخوخة، فإن جارية التجدد والاندثار هذه تكون فيها بطيئة، فضلاً عن أن بعض دقائقه المندثرة قد لا يعوض عنها، وهكذا يكون لكل طور من أطوار الحياة خصوصيات معينة وإن صعب تمييزها وفصلها وحدها عما سواها، ولكنها تدرك بما لها من الأثر المحسوس في اختبار كل منا».

ومن الفواعل الداخلية التي يشير إليها المؤلف أيضا الإرادة، إذ إن تأثيرها فينا لا يقل عن تأثير كل ما مر جملة، بل هي تعدل فعل تلك المؤثرات المار ذكرها تارة وتسد مسدها أخرى، ولولاها لكان الإنسان عبد الشهوات وآلة بيد المؤثرات الخارجة تديره كيفما اتجهت وتفعل به ما تريد.

ويبين المؤلف أهمية الإرادة في حياتنا، فعليها يتوقف غلبة النظر في أفعالنا على داعي الشهوة، فإذا قامت هذه فينا قامت الإرادة عليها، وأعوانها النظر في العواقب ومراعاة الأنسب، فتصرف مجهزنا عن متابعة الشهوات والأهواء، وتحمله على العمل بمقتضى النظر، فإذا تكرر فعلها هذا مرارا عودته مطاوعةَ النظر ومخالفة الشهوات، ويغدو المجهز خبيرا بمعرفة ما يقتضيه النظر، عالمًا بالطريقة التي يجري عليها إطاعةً لداعي الإرادة، وعلى عكس ذلك فيما تقتضيه الشهوة، وإذا تعارضت الشهوة والإرادة فأقل إيعاز من الإرادة يدعو المجهز إلى تلبيتها دون تلك، وقلما بعد أن يتعود المجهز مطاوعةَ الإرادة ويرسخ فيه ذلك، أن يعدل إلى مطاوعة الشهوة إلا إذا كانت هذه على أشدها وتلك على أضعفها، ومطاوعته إذ ذاك لا تكون لاختيار منه، إنما لإرغام الشهوة إياه قسرا، والعكس بالعكس، أي إن الشهوة إذا أطيعت دون الإرادة وتكرر ذلك أزمانا ولاسيما أيام الصبوة والشباب، تكيف المجهز لما يلائم أعمال الشهوة، وأصبحت حركاته مطاوعة لها، كأنما تجري بداهة عند أقل داع منها، فإذا رسخ ذلك أصبح المجهز عبد الشهوة لا يطاوع الإرادة إلا

قسرا، وهيهات أن تقوى الإرادة بعد ذلك على الغلبة إلا إذا كانت من الشدة والعزيمة على غاية، ووقفت رقيبا لا تغفل طرفة عين عن مغالبة الشهوة وقهرها.

ولا يخفى ما يكلف هذا الإرادة من السهر والتعب وطول الزمان، ومن يتركون لشهواتهم صغارا أزمان تكون الإرادة ضعيفة فيهم، يرون من أنفسهم كبارا أن شهواتهم مستولية على أعمالهم كل الاستيلاء، فإذا عمدوا إلى التحرر من تلك العبودية عانوا لذلك أشد السهر، وربما بقوا السنين يرون في أنفسهم عند أقل غفلة من إرادتهم أن شهواتهم هي الحاكمة عليهم.

ويلخص المؤلف الموقف من الشهوة والإرادة في أن كلا من الشهوة والإرادة تنازع الأخرى في الأعمال، فإذا تعين الغلبة للأولى في أثناء الصبا وأيام الشباب ترجح لها الغلبة في سائر العمر إلا في النادر، وإذا امتد زمان غلبها إلى ما بعد ذلك تعين لها الغلب دائما، لأن من شب على شيء شاب عليه، وسبب ذلك في رأي المؤلف أن المجهز الدماغي ينتقش فيه مع التكرار الحالة التي تعودها، فإذا امتدت العادة رسخ انتقاش ما تعودها المجهز وأصبحت ميلاً أو ملكة فيه ولا طاقة للإرادة بعد ذلك على كبحه أو منعه إلا بإحدى ثلاث طرائق:

الأولى: أن يمحي الانتقاش في المجهز وذلك مستحيل.

الثانية: أن تكون على انتباه أبدا حتى إذا نشأ باعث يبعده فلا يصل تأثيره إلى المجهز، فيمتنع بذلك تنبيهه لا عمله، وهذا قلّما يتهيأ لها، فإنها لا تقوى على صرف كل البواعث ولا على صرف بعضها وإبعادها، فلا بد إذ ذاك من وصول تأثيرها، فانتباه المجهز فعمله وفق المعتاد في أغلب الأحيان.

الثالثة: أن تعمد إلى المجهز فتدربه وتمرنه على مطاوعة بواعث أخرى تعاكس بواعث الشهوة في تأثيرها، حتى إذا درب على ذلك فأصبحت أفعاله تجري بداهة إذا تنبه كان منها بعد هذا أنه إذا انبعث باعث الشهوة تبعث الباعث الآخر

المعاكس له وتتحكم في الأمر حتى تقدم باعثها عليه وتنبه له المجهز، فإذا تنبه فعل بداهة وفقًا لما كان قد تعود فعله فتفوز الإرادة إذ ذاك وتفشل الشهوة.

ومن الملاحظ أن من تعرض له الشهوة ولا حيلة لإرادته في صرفها أو في إحضار باعث آخر يعاكسها، لا يستطيع مغالبتها فتغلب عليه، ولا غلبة السيد على المسود، كالسكير مثلاً إذا مر بحانة الخمار فشم رائحتها فإنك تراه يقف بها كأنما شددته بحبال فلا يستطيع مجاوزتها حتى يشرب فلا قدرة له على المقاومة بسبب سيطرة شهوته على إرادته.

وعلى مثل هذا أيضا حال الإرادة مع الانفعالات النفسية كالغضب والحزن وغيرهما من الانفعالات التي لها دخل في أفعالنا وتوجهات أفكارنا، فإن الغضب مثلاً إذا اعتاد المجهز مطاوعته، أصبح ذلك فيه ميلاً تحصل به تلك المطاوعة بداهة حتى إذا دعا أقل داع له (أي للغضب) تحرك المجهز على ما اعتاده من الفعل والحركة، ولا قدرة للإرادة على صرفه لأن فعله وحركاته أصبحت فيه من قبيل البداهة. ومن اعتاد الإذعانَ لغضبه تقوى فيه الغضب على الإرادة، وأصبحت العادة ميلاً والحركات بدهية تعجز الإرادة عن منعها بعد تحركها، وبالعكس من اعتاد عدم الإذعان لغضبه تقوت فيه الإرادة وضعف الغضب عنده.

ويرى المؤلف أن فعل العادة في تقوية قوانا العاقلة وأفعالها إنما يجري تحت إرشاد الإرادة أولاً بما يكون من الدأب على المباحث العقلية، ومزاولة الاشتغال بها إلى أن يمرن مجهز كل قوة على ما تريده منه الإرادة، وتصبح حركاته تجري على مقتضى البداهة. ومثل مجهز القوى العاقلة في ذلك مثل مجهز الأعضاء البدنية فإنها بعد التمرين تحت عناية الإرادة تصبح في حكم البديهة.

وإذا كان ثمة شيء من سهولة تعويد العقل الاشتغالَ بالمباحث العقلية فإن ذلك موقوف على تهذيب العواطف وحسن المبادئ ونبل المقاصد وسمو الغايات فإن هذه

أفعل ما يكون في صرف النفس والإرادة إلى الإقبال على تهذيب القوى العاقلة وتدريبها في المباحث السامية على أنواعها.

ولا يخفى أن المؤثرات الخارجية سواء أكانت من قبيل المؤثرات الطبيعية كالتي ترد عن طريق الحواس، أم من الأدبية كالمدركة بالوهم وغيره من القوى الباطنة فيما نشاهده حولنا من العوائد والمعتقدات الاجتماعية، التي لابد من تأثرنا بها كما لابد من تأثرنا بالمدركات الخارجية الحسية، وهي من هذا القبيل لا دخل للإرادة فيها، ثم إذا هي بقيت على ترتيبها هذا كان لها تأثير مخصوص وحصل عند النفس من الاعتقاد والتأثر ما هو موافق لهذا الترتيب.

ولا يخفى أن الإرادة لها دخل في ترتيب هذه التأثرات بعد إذ تقع وإحضارها لدى النفس لتقابل بينها وتتأمل في علائقها ونسبة بعضها من بعضها الآخر فيكون لها من هذا القبيل دخل وتأثير من جهة المعتقدات التي يحسبها بعضهم اضطرارية. وبناء على ما للإرادة من الداخل في هذا الترتيب ونظم تلك المؤثرات في سلاسل يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا صحيحا وفق علاقاتها الحقيقية ونسبها الصحيحة بعضها من بعض، ينتفي القول بأن الإنسان عبد المؤثرات والأحوال المحيطة به.

وإن انتباه الإرادة لهذا الترتيب في المؤثرات الخارجية ونظمها في سلاسل تتعلق في المسببات بالأسباب وفقًا للحقيقة، موكولٌ إلى العادة، فإذا زاولت الإرادة فعلها مدة تهيأ المجهز المخصص لهذا الترتيب حتى يصير فيه ذلك من قبيل البداهة.

ولا يخفى أن بين العادات الفكرية وخصوصيات الهيكل الإنساني تعلقًا وارتباطًا تامين، سواء كانت تلك الخصوصيات فطرية أو مكتسبة بحكم العادة، ومن الملاحظ أن تلك الخصوصيات قد تنتقل بالوراثة فينتقل معها إذن ما بينها وبينه من التعلقات الفكرية علاقة وارتباط في الأرجح، ويعزز ما نذهب إليه من حيث إن كثيرا من الخصوصيات العقلية والأدبية تظهر أحيانا في الأبناء في أحوال معينة لا يمكننا معها نسبة ظهورها إلى مؤثر آخر يطرأ بعد الولادة.

ومن تأمل في الناموس الطبيعي العام من حيث إن المولود يجيء على شاكلة والديه لا يستغرب هذا الرأي، وله من المشاهدات عليه أي على هذا الناموس ما هو من الوضوح بمكان، فإن الأجناس والأنواع تجيء أفرادها على مثال جنسها أو نوعها في سائر خصوصياتها المقومة لها، مادامت المؤثرات الخارجية المكيفة لها باقية على ما كانت عليه، وكذلك ما كان من الأنواع التي يمكن تتبع ما نشأ فيها من الخصوصيات تتبعا تاريخيا يصل بها إلى الفرد الذي ظهرت فيه تلك الخصوصيات فإن خواصها هذه تنتقل بالإرث إلى مواليدها. وثبوت انتقالها لا يكاد يختلف في شيء أو ينقص في شيء عما يكون في خصوصيات الأجناس والأنواع الأصلية.

ويناقش المؤلف في كتابه خصوصيات كل من الوالدين في انتقالها إلى الأبناء فيرى أن الصفات العامة التي يشترك فيها الأبوان تنتقل في الأعقاب على التساوي في الغالب، وأما الخاصة بأحدهما فتميل إلى فريق من الأبناء دون الآخر، وفي الغالب تظهر خصوصيات الأم في جانب البنات، وما كان من خصوصيات الأب ففي جانب البنين وقد يعكس الأمر نادرا.

ويشير إلى أن الباحثين اختلفوا في خصوصيات أي الوالدين تتغلّب في الأبناء على خصوصيات الآخر، على أنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة قاطعة من هذا القبيل، والمرجح أن في ذلك دخلاً لاعتقاد فضل أحدهما على الآخر، فإذا اعتقد الأب فضل خصوصية في الأم على خصوصية فيه جاءت الأبناء أميل إلى جانب الأم في تلك الخصوصية، والعكس بالعكس، وعلى ذلك يتشارك الأبناء فيما تشارك فيه الآباء، وينـزعون في الخصوصيات إلى جانب دون الثاني، وهو الجانب المعتقد فضله، إلا إذا نظر الأبوان أحدهما إلى الآخر نظرة المساوي فعندها ينـزع فريق منهم إلى جانب الأب، وآخر إلى جانب الأم، وفي الغالب البنون للأب والبنات للأم.

ويدلل على صحة ما يذهب إليه من المشاهدات في الحياة، فكلما سمت صفات الأب العاقلة والأدبية على صفات الأم بحيث لا يكون من الأم إلا أن تلحظ من زوجها هذا السمو عليها، نزع الأبناء في خصوصياتهم إلى جانب الأب حتى يشاهد ذلك في الملامح الظاهرة، وبعكس الأمر أي إذا لحظ الأب مثل هذا السمو والفضل في زوجته عليه نزع الأبناء إلى جانب الأم، وإذا حدث أن كلا منهما أعجب بخصوصية في الآخر، نزع الأولاد إلى تلك الخصوصيات المعجب بها واشترك البنون والبنات فيها على التساوي.

أما تأثير العادة وانتقالها بالوراثة فيرى أن عوائد قوم إذا رسخت أجيالاً متعاقبة لما تقتضيه رسوخ بيئتهم وأحوال معاشهم أصبحت العادة في الآخر ميلاً راسخا في البنية، وانتقلت بالوراثة إلى الأعقاب كما يشاهد في أبناء البدو الرحل الذين ربوا صغارا بين الحضر ولم يعرفوا من أحوال آبائهم شيئًا فإنهم متى كبروا ظهر فيهم حب التنقل واستصعبوا من الأحوال الحضرية ما لا يستصعبه أترابهم من أبناء الحضر الذين شبوا بينهم، وكل ذلك لم يتعلموه ولا حصل لهم بالاكتساب بتربيتهم بين أهل الأمصار، ولا يعلل ذلك إلا في أن عادات آبائهم هذه رسخت فيهم على طول الأيام فصارت ميلاً أو غريزة تتوارث في أبنائهم ينـزعون إليها، ويرون من أنفسهم حبها لغير سبب متى وصلوا سنا معلومة.

وينبه المؤلف على أن أبناء الكتاب قد تجيء خطوطهم أشبه في حروفها وهيئاتها بخطوط آبائهم وإن تعلموا الخط على معلمين آخرين، مشيرا إلى أنه يعرف في بعض العيال أن خطوطهم متقاربة جدا، وأن أكثرهم بعد أن يتقنوا الخط على معلمين آخرين، تميل قاعدتهم شيئًا فشيئًا حتى تشبه قواعد آبائهم، وهم لا يقصدون، وقد ذكر أحد الجرمانيين عن ثبت ما يقرب من هذا، وهو أن أبناء الإنجليز ولو تعلموا الخط في فرنسا تميل قواعدهم إلى الخط الإنجليزي المخصوص

بآبائهم. ومن الملاحظ أيضا أن من يتروضون على ركوب الخيل حتى يرسخوا في الفروسية تجيء أولادهم كأنها معتادة على ركوب الخيل خلقة.

ويقول المؤلف: «أعرف ولدا لا يبلغ العاشرة من العمر يركب الخيل الجياد ويجريها في الميدان بما يخطر في البال مقال أبي الطيب المتنبي:

وتظنها نتجت قياما تحتـهم وتظنهم ولدوا على صهواتها

ويتابع المؤلف قائلاً: «ومن المعلوم أن أبناء الماهرين في الموسيقا والتصوير يجيئون كذلك، فقد ذكر الدكتور «كربنتر» الذي أخذت عنه معظم ما جاء في العادة ونتائجها أنه يعرف أبوين ماهرين في الموسيقا والتصوير، فكان أبناؤهما عن آخرهم ميالين طبعا إلى درس أحد هذين الفنين أو كليهما لم يشذ واحد منهم».

والواقع أن كتاب «العادة» لمؤلفه المجمعي جبر ضومط يعد من الكتب القيمة والجديرة بالاقتناء مع مرور ما يزيد على القرن على صدوره، وذلك لما يشتمل عليه من فوائد يحتاج إليها الوالدون والمربون في بناء الجيل بناءً متوازنا ومتكاملاً ومتطورا من جميع الوجوه عقلاً ونزوعا وأداءً.